عرض الكتب

كتاب

الأصلاح الاجتماعي في (*)

عشت مع هذا الكتاب القيم في رحلة ممتعة ورافقته وكاني ألازم انسانا أريبا ، أصغي الى تاملاته ، وأستشف ملامح تفكيره، وأتعرف الى خطة سيره واتجاه مقاصده ٠

صحبته متانيا تحدوني أمانة الحريص على الفائدة ، وشوق المقدم على اكتشاف الجديد ٠ ومن الطبيعي أن تكون نقلتي معه مواكبة لخطواته المتزنة ، فلا تفوتني معالم الدرب وانما أشرف منها على الساحة الواسعة التي ربط أجزاءها وأعطاها طابع التخطيط والتمييز ٠

والاصلاح الاجتماعي الذي نتناوله بالبحث انما نهض به رجل – ولا كالرجال ، واضطلع بـه بطل وطد ملكا ووحد أمة وأقام كيانا اجتماعيا متماسكا فـلا غرابة اذن أن يستثيرنا في مختلف جوانبه وأن نعطيه حقه من الدرس والاستقراء ٠

(*) فاز هذا البحث بجائزة الملك فيصل التي اعلنتها دارة الملك عبد العزيز عام ١٣٩٥ هـ

المؤلف : د. عبدالفتاح أبوعلية
الناشر : دارة الملك عبدالعزيز
عـــام ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م

عهد الملك عبدالعزيز

عرض : علي الحاج بكري

وأسترعي انتباه قارئي الكريم الى أنني لن أسترسل في بيان صور الحياة المادية في تلك الحقبة . فاذا كانت المظاهر الاقتصادية ونوعية الأعمال التي يمارسها السكان ، والأساليب التي يأخذون بها تكشف عن مستوى الحياة الاجتماعية ، فانني ارمي بالدرجة الاولى الى بيان حركة الانسان ، ودوافع تحركه وما يطرأ على هذه الدوافع من عوامل تكون الأثر الفعال في عملية التغيير والاصلاح .

وفي عرضي هذا سأظل مع المؤلف الكريم ، وما عملي الا اخراج الصورة كما رسمها وان سمحت لنفسي أن أتغاضى عن بعض الظلال مقتنعا أن رفاتها تبقى واضحة الأثر في الألوان الاخرى للصورة المقصودة .

وبعد أن استعرض فصول الكتاب على النمط الذي أشرت اليه ، لا بد من وقفة مع مؤلفه أتناول فيها ما بذله من جهد علمي مشكور وأبدي له وجهة نظري فيما اعتمد من خطة لمعالجة هذا البحث القيم .

صورة الأمس :

المكان : نجد ، نجد العطاء التي توثبت فيها الروح الاسلامية بعد أن طهر الاسلام نفوس أبنائها من أدران الجاهلية والنزعة القبلية ، فأخرجها قوة للفتح وقوة للدعوة ، فسطرت في التاريخ الاسلامي صفحات مشرقة في سجل الزمن .

الزمان : أوائل هذا القرن الرابع عشرة للهجرة ·

ونتلمس معالم الصورة فنراها قاتمة الجوانب ، مفككة الأجزاء ، لا تكاد تذكر فيها تألق العزائم ، وتلاحم الصفوف ، وزخم كتائب الجهاد ·

مليون من السكان يتوزعون في رقعة واسعة من الارض ·· ضمتهم تجمعات متفرقة كأنهم غراس الواحات في غمار الصحراء ، وتميزهم كيانات قبلية تراخى فيها رباط العقيدة واشتد رباط القبيلة حيث يشكل أفرادها كما يقول المؤلف : « وحدة متكاملة ومتضامنة يرتبطون بروابط اجتماعية وسياسية واقتصادية ··· والأسرة النجدية التي هي وعاء أصغر ضمن وعاء أكبر ، ظلت في خط تقليدي قديم متوارث يتفق مع القيم والأهداف التي وضعها الفرد لنفسه وكون منها ذاته ، أو مع مفهوم البدوي للحياة ، أو مع ما يوفق بين عقيدته وواقعه » (١) ·

نحن أمام وحدة رائدها المصلحة ، مصلحة الفرد في اطار مصلحة الجماعة الخاصة فلا تطلعات تحيي أمجاد الآباء ، ولا تخطيط لعمل ينشد بناء المستقبل · قبائل متعددة تعتز كل منها بحماها ومرابعها مع أنها في ضمير الماضي متشابكة النسب ، وثيقة الصلة ، كريمة الانتماء عقيدة وعملا ·

وهكذا عصف الدهر بها فتنازعت وتخاصمت وارتضت لونا رتيبا من الحياة الاقتصادية جعلت من الرعي ميدانها الوحيد ·

واذا انتقلنا الى الحاضرة ، نرى الصورة لا تزال باهتة فالانتماءات القبلية قائمة · ونرى هنالك ــ بين وضع البدو والحضر ــ « توافقا وانسجاما في عاداتهما وتقاليدهما ، ويصل هذا الانسجام الى الأساليب الحياتية فنلاحظ توافقا ظاهرا في أنواع الأكل وعادات الأفراح ، وفي البيع والشراء · هذا على الرغم من أن سكان البادية يعتبرون أنفسهم أرفع درجة من الحضر ــ سكان الواحات والمدن ــ وذلك لأنهم أنقى نسبا » (٢) ·

ونستطيع القول أن الحياة اذا فرغت من العطاء والنماء ، وران عليها الركود، توفرت فيه االغرائز · وكذلك حال البدو من « ظاعنين ومريحين ، لا تربطهم صلة ، ولا تجمعهم جامعة ، تتغلب عليهم الأهواء ، سراع البادرة ، يستطيع المرء أن يبكيهم

ويضحكهم بكلمات مؤثرة أو باثارة مخيلتهم وكرمهم وجزل العطاء لهم ، وهم قلقون وهائمون وقد ينقلبون على المهزوم ويشبعون فيه سلبا » (٣) ٠

هذه صورة يكاد يفر منها المتشبع بأمجاد التاريخ الاسلامي ، ولكن اذا أمعنا النظر في هذه النفسية الانفعالية نجد فيها كل ما يبشر بالخير ، نجد فيها سرعة الاستجابة فكما تزرع تحصد ٠ وسترى كيف استطاع الملك عبد العزيز أن يستثير في هذه النفوس روح العزة والكرامة واصالة الفطرة ، ويبذر فيها بذور الايمان فاذا به يخرجها واحة نضيرة الاهاب جمة العطاء ٠

وللصورة جوانب أخرى علينا أن نتقراها دون أن تسترسل في تعداد الوحدات القبلية أو التجمعات الحضرية ٠ فما هي صورة الانسان في تلك الحقبة ؟٠٠٠ هل تتمثل بالنزعة الفردية والانسياق مع الحاجة والغريزة والواقع المرير ٠٠٠ قد نقول مع القائلين أن الأمر لا يخرج كثيرا عن هذا الاطار في ظاهره ، ولكن اذا عمقنا النظرة وقلنا أن الولاء للقبيلة وشيخها ، وحب النجدة والكرم والشجاعة ٠٠٠ هذه الصفات المتأصلة في نفس ابن البادية مهما كانت دوافعها تشكل خامات قيمة وقابليات خصيبة للولاء للعقيدة والدفاع عنها والتضحية في سبيلها ٠ والانسان في هذه الصورة لا يشعر بأنه مكبوت الرأي فهنالك مجالس للشورى تسهم في رسم الطريق وبيان الاتجاه عند الأزمات ٠ وكذلك فان تشابك النسب يكسب كل رأي قوة ما دام صادرا عن الآباء والعمومة والخؤولة ٠

ومرورا باصالة الجنس (الجنس العربي) نصل الى اصالة الولاء التي جعلت حتى من الرقيق عضوا فعالا في الاسرة والقبيلة ويعتز بأمجادها ويعمل لاسعادها ٠

وأراني ابتعدت عن قصد عن بيان الألوان في الصورة وأقصد بها ذكر طبقات المجتمع وتفاوت الأقدار واختلاف المراكز التي فصلها المؤلف الكريم ٠٠٠ ويكفيني أن أشير أن الصورة في اطارها العام لا ترضي الناظر ولكن في عمقها خلفية اذا أزلنا عنها الركام بدت محتضنا صالحا لدعوة صالحة وعمل صالح ٠

لقد رانت على نجد أحقاب متلاحقة اختلفت فيها طبيعة الحكم وأزرت بها ارادة الاهمال وتركتها ترتد الى ميدان صلب لم تتفجر منابع عطائه فبدت الساحة قاحلة جفت معها الطباع ولكن بقي الدر في المكامن لمن يعرف كيف يستخرجه من منجمه ٠

والسؤال الذي يطرح نفسه أين كانت الدعوة السلفية المباركة ٠٠ هل انحسرت بعد امتداد أو تقلص اثرها في النفوس ؟!٠٠ الأصح أن نقول أنها كانت في حالة تحفز لا يخلو من حذر حيث وقفت أهواء السياسة في القرن الماضي تفت في عضدها وتضرب تحركاتها ٠٠٠ ومهما يكن من أمر فقد « كانت أنظمة الشريعة الاسلامية تطبق على سكان الحواضر ٠ وأما البدو فقد كان لديهم قوانين وأحكام انبثقت عن عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم لها صفة الالزام وان كانت تدل على الطبيعة البدوية الا أنها لا تخالف روح الشريعة » (٤) ٠ ولا شك أن هذا الواقع كان ثمرة من ثمار الدعوة التي تغلغلت في النفوس وهزتها وأخرجت ما فيها من أدران « فقضت بذلك على الخرافات والبدع وتعظيم القبور والنذر والتبرك بالأشجار والأضرحة وعلى كل ما شاب العقيدة الاسلامية ومفاهيم الاسلام » (٥) ٠

وهكذا نرى الصورة على قتامتها تلتمع في ثناياها أضواء تكشف عن اصالة معالمها الأساسية ٠

صورة الأمس في ربوع الاحساء :

ونسير نقلة جديدة من نجد الى الاحساء لنقف على العوامل التي ساعدت على ضم الصورتين في مشهد واحد ٠٠٠ ورائدنا دائما الحوافز البشرية ودوافع تلك الحوافز التي عملت على التوحيد ٠

تستريح أرض الاحساء على شاطىء الخليج العربي الغربي وتتنفس هواءه الندي فاذا بواحتيها في الهفوف والقطيف تتألقان نضارا واذا بالينابيع تتفجر ريا وعطاء ولكنها تعجز عن احتضان هذا الاقليم بسخائها فتظل معظم أرجائه صحارى لم يحن آنذاك قطاف ثمارها الجوفية ٠

ربع مليون من السكان يعيش معظمهم في تموج مستمر تبعا لتقلبات الفصول ، وكثيرا ما تجاوز تحركهم حدود الاقليم ليجدوا في أطراف نجد بغيتهم في التماس الماء والكلأ ٠ وقد انتظم سكان الاحساء في قبائل متعددة جمعت بعضها تحالفات في اطار القرابة الدموية والمصالح المشتركة ولكنها لم تمح نزعة الصراع في نفوس أبنائها وربما كانت هذه النزعة من عوامل تلك التحالفات أيضا ٠

والتموج الموسمي هذا يتكشف أحيانا عن تمازج سكاني بين قبائل الاقليم والقبائل الأخرى في الأقاليم المجاورة » (٦) · والسؤال الآن ما دمنا لم نخرج عن اطار البداوة وتموجها والحاضرة وضيق رقعتها ومجالها فهل نحن أمام صورة مغايرة لصورة الأمس في نجد ؟؟ ··· ويأتينا الجواب بسرعة أن هنالك جنسا واحدا يتمثل في اصالته ونقاوة نسبه في جماعة البدو ولكن الحاضرة ومناطق الاستقرار ضمت جنسا أو أجناسا أخرى تبعا لطبيعة الموقع واطلالته على البحر فقد تمركز فريق من الأعاجم ونفر من أصل هندي وانفتح المجتمع بحكم ذلك « على عدة أجناس وعادات وثقافات وديانات أخرى كان لها أثر كذلك في سلم التوزيع الاجتماعي » (٧) · ويأتي الحكم التركي ليترك بصماته أيضا وان كان أثره لا يتعدى أسوار المدن والقرى من حيث العامل التنظيمي والسلطة المباشرة · ويواكب ذلك أثر آخر اذا أبت القبائل أن تلتزم بدفع الضرائب فكان الحاكم التركي العثماني يسير الحملات التأديبية التي « تضطرها للخضوع أو التشتت في الصحراء أو الفرار الى خارج حدود الاقليم أو حدود امتداد السلطة المتعارف عليها بدون خرائط جغرافية » (٨) · ويلون الصورة المستوى الاقتصادي المرتفع نسبيا في الواحات والمدن بحكم الزراعة والتجارة والصناعة المحدودة ·

ونستطيع القول أننا أمام مشهدين يتباينان في معظم الأحيان : مشهد البداوة باصالته ونقاوته ونوع عاداته ومشاربه التي أشرنا اليها في الحديث عن اقليم نجد ، ومشهد الحضر بعناصره المتمازجة وما صحب ذلك من تعقيد ·

وتطل الحركة السلفية المباركة لتواجه موقفين : موقف البدو الذين انسجموا في النهاية وتجاوبوا مع هذه الحركة ، وموقف الشيعة في المدن بجذورهم الأعجمية التي دفعتهم الى تحالفات مع اخوانهم في المذهب في البحرين وايران للوقوف ضد الدعوة الاصلاحية من أجل الحد من نشاطها وامتدادها (٩) · وكذلك فان الدولة العثمانية لم ترض عنها ورأت فيها خطرا عليها وعملت على مقاومتها ··· ولكن هذه الدعوة الاصلاحية استطاعت أن تترك أثرا بالغا في الاقليم فقضت على كثير من البدع وأوجدت الدراسات الدينية في المساجد « وبعثت شعورا دينيا ووطنيا عند السكان وهذا ما أمكن استغلاله ضد الأتراك والانجليز والقوى الخارجة عن الجزيرة » (١٠) ·

والذي نستخلصه من هذا الفصل أن العقلية السائدة في الاقليم بدت في حالة توفز وتيقظ واستعداد لقبول التغيير والانتظام نتيجة للحركة السلفية التي فتحت

النفوس للرضى بأحكام الشريعة بدلا من حكم العرف والعادة ومهدت السبيل لقبول مبدأ سيادة الدولة بدلا من سيادة الأنظمة القبلية ·

صورة الأمس في ربوع الحجاز وعسير :

ان معالم الصورة التي نعمل للكشف عنها ترتبط بمرتسمها الجغرافي ولكن الذي يهمنا منها هو بيان الارتباطات البشرية وأثرها في تكوين العقلية التي سادت في تلك الحقبة لأنها أساس التدافع والجذب في مواجهة كل تبديل أو تغيير ·

« لقد شكل سكان الحجاز مجموعة مختلفة ترتبط بالروابط الدينية ، فالى جانب السكان العرب الأصليين فان هنالك أتراكا وفرسا وهنودا وأفغانا وملاويين وأفارقة ومغاربة وشواما وصينيين وغيرهم (١١) · ونسبة العرب في مدن الحجاز أصبحت قليلة اذا ما قيست بنسبة العرب في الأقاليم الأخرى من الجزيرة العربية ·

ويصدق هذا القول على المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث قام التمازج في الجنس بين السكان الأصليين والوافدين الذين حرصوا على جوار بيت الله الحرام وجوار الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن ظلت القبائل العربية البدوية التي تشكل نسبة كبيرة من سكان الاقليم خارجة عن عملية التمازج حريصة على اصالة جنسها العربي ·

وتكاد تكون الحال واحدة في اقليم عسير وفي مدنه على الأخص حيث حدث « تمازج في الجنس مع أجناس افريقية كانت تصل من ميناء مصوع الى اليمن وعسير، وفي الغالب كانت هذه الهجرات البشرية على شكل هجرات دائمة تقيم وتتزاوج وتختلط بالسكان هناك » (١٢) ·

ويأتي النشاط الاقتصادي ليترك بصماته في الحياة اليومية وفي تمازج السكان فقد استطاع الوافدون الى الحجاز من مختلف الجنسيات أن يحتلوا مراكز اجتماعية وسياسية بفضل قيامهم بالأعمال التجارية وعوضوا بذلك عن النسب المميز عند العرب · ولا شك أن وحدة العقيدة جمعتهم يذوبون في المجتمع العربي ويأخذون طباعه وعاداته وثقافته (١٣) ·

ولئن تراءى لنا أن بدو الحجاز يشكلون اطارا خاصا خارج الصورة المتعددة فان عرب عسير الذين تميزوا بالاستقرار والعمل بالزراعة استطاعوا أن يفرضوا وجودهم وكان الكيان القبلي أساسا في التوزيع الاجتماعي وعاملا قويا من عوامل السيادة المحلية •

وثمة أمر آخر جدير بالتسجيل وهو قيام جماعة تزهو بمقامها الرفيع في كلا الاقليمين وترجع نسبها متصلا بالحسن بن علي بن أبي طالب الى جانب جماعة أخرى تربط نفسها بشقيقه الحسين ، وكان للتنافس بين الجماعتين أثر في بعض الاتجاهات والأحداث •

ويزيد في ألوان هذه الصورة نشوء طبقة جاءت وليدة المصاهرات بين العنصر التركي الحاكم وعرب الاقليمين ••• وتقوم في الصورة ظلال من هنا وهناك تتمثل بالرقيق الذي لم ينضب مورده من أفريقيا وآسيا الا لعهد ليس بالبعيد •

وهكذا تبرز أمامنا مواكب بشرية تلونت في معطياتها وتلونت في جنسها وتنافرت حينا ثم تقاربت وتمازجت ما دامت كلها تنتسب الى دين واحد ••• ولا يغيب عن بالنا أن نشاط حلقات الدرس الديني في الحرمين الشريفين وقيام العديد من المدارس الأهلية والكتاتيب واسهام الدولة العثمانية في عملية التعليم ، جعلت الحجاز على الأخص من بين أقاليم الجزيرة العربية أكثر انفتاحا على المعرفة وتقبلا لعملية التمازج التي ألمحنا اليها ولكن الأمر في عسير كان أضيق نطاقا وظل في حدوده التقليدية القديمة •

وبالنسبة لنشاط الحركة السلفية في الحجاز ، نجد علماءها يختلفون مع علماء مكة ونرى قادتها يصطدمون مع ساسة هذا الاقليم « منذ بداية عهد الدعوة وحتى دخول الملك عبد العزيز آل سعود الحجاز ••• حتى أن الأشراف منعوا حجاج نجد بعد انتشار الدعوة السلفية بينهم من أداء فريضة الحج وسافر بعض علماء الدعوة الى مكة لمناظرة علمائها ولم يتوصلوا الى اتفاق » (١٤) ولكن موقف عرب الحجاز أخذ اتجاها آخر فقد تضايق هؤلاء من ضغط السلفيين العسكري على اقليمهم لذلك أرسلوا مندوبا عنهم « الى الدرعية عاصمة الدولة السعودية الاولى لمبايعة الامام عبد العزيز بن محمد بن سعود على قبول نظام الحكم السلفي السعودي واتباع الدعوة السلفية وبهذا انتشرت ••• بين الأعداد الكثيرة من قبائل حرب وجهينة وقحطان

القاطنين في الحجاز ، وهذا ساعد على ازدياد النفوذ السلفي السعودي ليس في الحجاز فحسب بل وفي تهامة وعسير وشمالي اليمن » (١٥) .

وأعود الى تعليل سبق أن ذكرته وهو أن العقلية البدوية البعيدة عن تعقيدات الحضارة سريعة الانفعال ، سريعة الاستجابة فكما تزرع تحصد ، فاذا ما اطمأنت أعطت ودافعت عن مكاسبها بقوة . وهكذا أدى تقبل قبائل الحجاز للدعوة السلفية الى امتدادها في عسير لأن سكان هذا الاقليم « كانوا مهيئين لقبول الأفكار الدينية من دعاتها العرب ، ولم يكونوا متعاطفين مع الأتراك وهذا يفسره نجاح الثورات المحلية في جميع أقاليم الجزيرة العربية » (١٦) .

لقد حرصت في هذا العرض أن أستخلص من كلام المؤلف الكريم ما كانت عليه العقلية السائدة في أقاليم الجزيرة والعوامل المؤثرة في تلك العقلية ثم بيان أثر الحركة السلفية ومدى امتدادها لأن ذلك يفسر نجاح حركة الاصلاح التي اضطلع بها الملك عبد العزيز وتوجها بتوحيد معظم أقاليم الجزيرة العربية .

عوامل وحدة وتفكك المجتمع في نجد والاحساء والحجاز وعسير كما بدت في مشهد الأمس :

حرصت في الصفحات المتقدمة أن أواكب قلم المؤلف الكريم وهو يرسم معالم صورة الأمس ، ولعلي اختزلت المشهد قليلا الا أنني لم أمس الملامح الأساسية وأبقيت على كل ما ينم عن طبيعة تكوينها .

عوامل الوحدة : اذا استقرأنا عوامل الوحدة في هذا المشهد البشري رأينا رابطة النسب تطل في المقدمة بدءا من العائلة التي اشتد رباط أفرادها وانتهاء بالقبيلة التي أبقت على هذا التلاحم العضوي . فالجنس واحد ، والمصالح مشتركة ، فاذا تأزمت الأمور بين المجموعات القبلية المتعددة تلجأ الى أقرب ما يربط بينها من صلات الدم وتقيم التحالفات مع أبناء العمومة والجوار . ويصدق هذا التلاحم في الحضر كما يصدق في البدو . فأولئك تشيع في دمهم أيضا فكرة الولاء لشيخ القبيلة والامتثال لسلطته ... ويأتي الرباط الأقوى المتغلغل في أعماق النفوس وهو رباط العقيدة ليكون لحمة النسيج ويشد الخيوط التي تتراخى بين حين وآخر .

وكذلك فان ممارسة الحياة اليومية في اطارها الاقتصادي يقرب بين الحاضرة والبادية ، فكل منهما تتمم الأخرى في عملية تبادل مستمرة ، فعملية النقل وهي عصب اقتصادي هام كان يضطلع بها ويحميها رجال البدو لحساب الحضر .

ومن أجمل ما يتكشف عنه المشهد قيام نوع من التكافل الاجتماعي في أقاليم الجزيرة ، ويتمثل ذلك في اكرام الضيف وفي اعانة المنكوب وفي مؤازرة الراغب في الزواج ودفع الديات وما الى ذلك .

عوامل التفكك : والعوامل السابقة نفسها في ايجابيتها التي تقود الى التلاحم ، قد تتوفر أحيانا لتغدو عوامل تفكك ، وسبب ذلك هو العقلية الانفعالية السائدة آنذاك . فاشتداد الروح القبلية بالاضافة الى ضيق سبل العيش في الصحراء، قاد الى النزاع على مواقع العشب والماء . والقوافل التجارية التي يحرسها البدو تصبح عرضة لاعتداءات فريق آخر . وحياة الحاضرة بما فيها من وفرة مادية أحيانا تثير مطامع البدو فينقضون عليها ويسلبون ما يستطيعون .. واذا كان عامل الجنس لم يكون مشكلة لأن غالبية السكان من العرب ، فان المذهب الديني حال دون تجانس السكان في الاحساء مثلا : ولكن بالنسبة لانتشار المذهب الحنبلي السلفي بين أهل السنة والجماعة فانه لم يترك سوى حساسيات محدودة لم يدم أمرها لأن المذاهب الأربعة كلها تنهل من منبع واحد .

وثمة نواح أخرى كوقوف القبائل في وجه السلطة الحاكمة وما الى ذلك من توترات يفرضها اختلاف أنماط الحياة بين البادية والحاضرة وآثارها النفسية ، تقود الى التنافر أيضا . وتتجلى الصورة أكثر وضوحا اذا استعرضنا مشكلات كل من البدو والحضر لأنها وثيقة الصلة بعوامل التجمع والتفرق الآنفة الذكر .

مشكلات البدو : يعاني هؤلاء مشكلة عدم الاستقرار والتنقل الدائم مع أنهم يفخرون بحياة الترحال كما تهد كيانهم حياة الغزو والفوضى والصراع مع السلطات المحلية وما تخلقه فترات الجفاف من ضيق نفسي ومعاشي يزيد في التنافر بين القبائل ، فتتساقط الضحايا وتلتهب عاطفة الثأر . ويحرك ذلك كله الجهل المهيمن والتمسك بقيم خاصة بالية والخضوع لسلطة الشيوخ ورغباتهم وما تجر من ويلات. ويضاف الى ذلك ، المشاكل اليومية التي يعانونها من فقدان روح العناية بالصحة

واستيطان بعض الأمراض وانعكاساتها على الأرواح والأبدان · وتتجلى المشكلة الأساسية بفرط الحساسية لدى البدو التي تحرك العوامل كلها وتجعلها مجالا لمزيد من التعقيدات ·

مشكلات الحضر : والحاضرة تعاني أيضا من المشاكل فهي مطمع البادية تغير على قوافلها التجارية وترى فيها وفي مواكب الحجيج مجالا للسلب وقطع الطريق وبخاصة فان السلطة التركية كانت تقف عاجزة عن فرض الأمن مما زاد الطين بلة · وهذه السلطة نفسها كانت تعاني من نزاعها مع السلطات المحلية كسلطة الأشراف في الحجاز وعسير ·

وتأتي صعوبة المواصلات وقلة المياه وقوة المناخ التي تشل حركة السكان وكذلك اهمال الزراعة أو العناية بنوع محدود منها مثل الاعتماد على التمور لتزيد في مشاكل الحاضرة ومتاعبها ·

فكيف السبيل لاصلاح تتضافر فيه الجهود وتتوحد فيه الاتجاهات فاذا بالمشاكل تتبخر واذا بالانسجام يقود الى التلاحم والاستقرار ؟؟· هذا ما تجيب عنه أعمال الملك عبد العزيز وخططه في هذا المجال ·

الاصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز :

لقد عالج المؤلف الكريم عملية الاصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز من جوانب مختلفة وسلط الأضواء على ما قام به من تنظيمات وما اختطه من أساليب جعلها سبيلا للقيام بالاصلاح المنشود ·

وفي استعراضي لهذه التنظيمات والأساليب لن أغرق بالتفصيلات أو أتوقف عند الاحصاءات وانما سأكتفي ببيان المجرى وما اعتوره من عقبات ، والغاية وما اعترض تحقيقها من صعاب للوقوف على النتيجة التي انتهت اليها حركة الاصلاح ·

لقد أراد الملك عبد العزيز أن يوطد ملكا ويوحد أمة ويبني كيانا اجتماعيا واستطاع أن يحقق كل ما أراد فلنسر مع خطواته المباركة في هذا الميدان ·

حركة الاخوان وما هدف اليه الملك عبد العزيز من وجودها :

اذا ذكرنا قول الله تعالى «ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ٠ وعدنا الى طبيعة العقلية التي كانت سائدة تساءلنا هل من سبيل لتغيير النفوس ؟!٠ وهل من سبيل لتوجيه الطاقة الى وجهة أخرى ترتفع بالمرء عن نزواته ونزاعاته ؟٠٠ ويأتينا الجواب بأن الدعوة السلفية التي حرصت على تنقية النفوس من أدران الانحرافات وجعل العمل الصالح بغية المؤمنين كانت ترمي الى هذه الغاية المثلى وجاءت حركة الاخوان لتكون الطليعة في هذا المجال ٠

والحركة مثالية في اخراجها « فكلمة الاخوان هي عودة بالاسم الى مبدأ التآخي الذي عملت به الجماعة الاسلامية الاولى وقد أسمت قراها بالهجر نسبة الى هجرة الرسول الكريم وصحبه الى المدينة المنورة » (١٧) ٠ فهدفها البين هو التآخي والاستقرار وفي ذلك سكن للنفوس الانفعالية القلقة ٠

حركة الاخوان هذه كانت من بنات أفكار الملك عبد العزيز باجماع المصادر تقريبا ، وهي سبيل ذكي لحمع الكلمة وضم الصفوف واقامة كيان وتوحيد أمة وقد توفرت عوامل ساعدت على نجاح المشروع : فقد اجتمع الحماس الديني الفطري لدى البدو البسطاء الى سرعة الاستجابة العاطفية مما جعل عمل المرشدين مثمرا في توعيتهم وتوجيههم ٠٠٠ ورأى الملك عبد العزيز بحصافته أن يقطع الطريق على أي تردد فدعا القبائل الى بيع جمالها التي هي رمز البداوة ليستقروا في الارض ويعملوا في الزراعة ٠ وليزيد في اطمئنانهم عمد الى اغداق الأعطيات عليهم واستطاع اقناع رؤسائهم بالحضور الى الرياض لينتظموا في حلقات الدراسة في مسجدها الكبير ويعودوا بعد ذلك الى قبائلهم قادة مرشدين ينشرون التعاليم الدينية ٠

والأمر الذي زاد في نجاح هذا المشروع هو مرونة النظام الخاص بالتوطين فقد سمح لقسم من أفراد القبيلة أن يبقى في الصحراء للعمل في الرعي وينصرف القسم الآخر للاقامة في الهجر وممارسة الزراعة ٠ وجاءت عملية توزيع الأراضي المجاورة للهجر على البدو الجدد الوافدين للاستقرار فزرعت الاطمئنان في قلوبهم بما ترقبوه من فائدة ٠

وانطلقت الحركة في سبيلها تدعمها شخصية الملك عبد العزيز القيادية البارعة وهباته المتواصلة مع تغذية النفوس بالثقافة الدينية عن طريق العلماء لأنه يعلم أن كلمة الأئمة الشرعيين تنتشر بسرعة وتطاع من قبل البدو ·

ولكن ماذا حدث حتى اهتزت الصورة ···؟! لقد قام بعض أدعياء العلم فلقنوهم تعاليم دينية ممزوجة بانحراف عن صفاء العقيدة وأفهموهم أن غير الاخوان كفرة وحرموا عليهم ليس العقال وما الى ذلك ··· وكذلك فان فكرة التوطين لا يمكن أن تمر دون معارضة من قبل بعض القبائل لتأصل روح البداوة في النفوس فاغتنم هؤلاء الفرصة للثورة على الملك عبد العزيز أثناء انشغاله بالحروب لتوحيد أجزاء الجزيرة ·

ومهما يكن من أمر فقد حققت فكرة التوطين بعض أهدافها الرئيسية فقد استطاع الملك عبد العزيز أن يجمع أكبر وأقوى قوة عسكرية في جزيرة العرب آنذاك · واستطاع أن يحول ولاء البدو من شيخ القبيلة الى الامام الشرعي وجعلهم يستجيبون للنظام ويدفعون الزكاة ويلبون أوامر للجهاد ضد من خالف تعاليم الاسلام أو حاول العبث بالأمن الذي غدا شعار الاستقرار في المملكة العربية السعودية · وساعدت حركة التوطين هذه على تطوير البلاد بايجاد القرى الزراعية فتحسنت الأحوال الاقتصادية لسكان البادية وتوفر لهم التثقيف الديني على يد المطاوعة في حلقات المساجد ·

وهكذا تم الأخذ بيد البدوي الى مجالات جديدة لم تبتعد به كثيرا عن حياته الاولى تبعا لمرونة النظام ولكنها جذبته الى مكاسب طالما حلم بها وفي الوقت نفسه استطاعت أن تبلور عقليته في اتجاه جديد خرجت به من اطار العصبية القبلية الى التعصب للفكرة والولاء للامام والدولة ·

وكل مسيرة في مجتمع لم تتوفر له أسباب الاستقرار المادي والنفسي لا بد أن تتعثر أو يعنف زخمها في مواضع لا ينفع فيها ذلك ·· فقد تمادى الاخوان في تعصبهم واشتد موقفهم من الشيعة في الاحساء وقسوا في قصاص الناس في الحجاز « لا تأخذهم رحمة أو شفقة ولا فرق عندهم بين كبير أو صغير فالكل متساوون في العقاب اذا ما أخل بما يعتقدونه من تعاليم دينه » (١٨) · وهكذا أوجدوا المتاعب للملك

عبد العزيز· « وزادت مشكلاتهم عندما بدأ ابن سعود يأخذ بأساليب الحضارة الجديدة فاعتبروا قبوله المخترعات الحديثة كالسيارة واللاسلكي والهاتف والمذياع خضوعا منه للانكليز » (١٩) ··· ولم يقفوا عند هذا الحد فقد أزموا الموقف بينه وبين الدول المجاورة باعتداءاتهم على الحدود· وتكشف الموقف عن نفور داخلي من هذه التصرفات الى جانب التوتر مع الخارج ·· وانتهت بهم الحال الى التمرد على الملك عبد العزيز نفسه ولكن سرعان ما قضى على تمردهم ولا داعي لذكر أسباب هذا التمرد ، ويكفي أن نقول أن الملك كان يسعى لاقامة نظام وتوحيد أمة والأخذ بأسباب الحضارة وهم بعيدون عن تفهم هذا المنطق الهام ·

واذا استعرضنا النتائج الايجابية والسلبية التي برزت في تضاعيف هذا الاستعراض نجد أن عملية الاصلاح الاجتماعي قد حققت نقلة طيبة الى الأمام فقد حدث تحول اجتماعي نتيجة اسكان البدو في قرى زراعية وتحضيرهم وبدأوا يتفهمون روح المواطنة وعم البلاد سلام لم يكن متوفرا من قبل · وقامت قوة عسكرية وان كانت غير نظامية الا انها ساعدت على دمج القبائل في مجتمع واحد كما أوجدت الحركة نوعا من التثقيف الديني للبدو وحدت من الروح الفردية والفوضوية وغاب في النزاع المظهر القبلي أو العائلي ليأخذ طابع الجهاد أو الدفاع عن الدين ··· حتى سلبيات الحركة أعطت نتائج طيبة في توجيه قافلة الاصلاح وازالة العثرات لتدعيم الكيان الاجتماعي ·

ويقف الباحث المنصف معجبا بشخصية الملك عبد العزيز مقدرا عقليته الفذة التي استطاعت أن تستفيد من المتناقضات والأحداث وأن تتخذ منها دروسا في التطوير والتسديد وتلك عظمة الرجال البناة ·

صور الاصلاح الاجتماعي السعودي :

عقد المؤلف الكريم فصلين متتاليين هما السادس والسابع لبيان أثر البترول في تطوير الحياة الاقتصادية ونتائج ذلك في سير عجلة الاصلاح الاجتماعي السعودي· والذي يهمنا توضيحه هو الصورة التي انتهت اليها عملية الاصلاح ، فالبترول جاء وسيلة للتطوير والتغيير ولكن المهم هو الاستفادة من هذه الوسيلة وتوجيهها · ومن

ملك الارادة وملك الوسيلة ، حقق الغاية التي يرمي اليها وهذا ما فعله الملك عبد العزيز .

بدأ انتاج البترول يغذي الخزينة السعودية منذ أربعين سنة تقريبا وبدأ الدخل من هذا المورد الهام يتصاعد عاما بعد عام وبدأ معه سلم التقدم في الارتفاع . ونترك أمر الحديث عن الشركات صاحبة الامتياز وندع الأرقام والاحصاءات جانبا لنقف على أثر الوسيلة في تطوير المجتمع . والواقع أن اكتشاف البترول ... « كان بداية عهد الاصلاحات المدنية في بلاد ظلت تعيش في طور اقتصادي — سياسي — اجتماعي تقليدي قديم متوارث ويمكن تحديد بداية العهد الحضاري الجديد بنهاية حروب الملك عبد العزيز مع اليمن وبداية توقيع عقود البترول مع الشركة الأمريكية » (٢٠) .

تدفق البترول فارتفعت أجور الموظفين في الشركات العاملة وأحدث هذا الدخل تغيرات مباشرة وغير مباشرة في مختلف المجالات وفتح الباب لدخول وسائل الحضارة المادية وما تحمله من مغريات وآخذ المجتمع يبدل في طريقة حياته .

ونستطيع القول أن المجتمع السعودي غدا كخلية النحل في حركته ونشاطه فشركات البترول نفسها أسهمت في حركة التعليم والتدريب للحصول على طاقة بشرية مدربة وعمدت الى الاستفادة من أعداد كبيرة من الأيدي العاملة السعودية وكان معظمها من بدو المنطقة الشرقية ... فانتظم هؤلاء في اطار جديد من الحياة الاجتماعية وطلقوا حياة التنقل والفوضى وبدأت حركة البناء وقامت شركات وطنية سعودية وكان الملك عبد العزيز « يشجع المشروعات الوطنية في بلاده تلك المشروعات التي تمون برؤوس أموال أهلية من أجل تطوير بلاده » (٢١) .

برزت في البلاد طبقات المجتمع في صورة جديدة : فئات غنية وعناصر مثقفة وطبقة عمالية منظمة الا أنها ظلت محتفظة باصالتها وتواضعها وتقاليدها من حيث الأكل والشرب واللباس ومن حيث العلاقات الشخصية أيضا .

واتسعت دائرة الاصلاح وانتشر الوعي الثقافي وازدادت الطبقة المؤهلة لتسلم الادارات المدنية والعسكرية في الدولة . وكان الملك عبد العزيز وراء هذه التطورات

يوجهها ويغذيها عن طريق استقدام الخبرات والبعثات التعليمية وايفاد البعثات الطلابية الى الخارج ..

وصفوة القول أن توفر الوسيلة المادية مع قيام ارادة العمل قفز بالبلاد قفزة هائلة الى الأمام واختفت الصورة القديمة تقريبا وأخذت حركة الاصلاح تدريجيا طابع الشمول في مختلف مرافق الحياة . وأصبحت الأسرة السعودية الحديثة تعيش نعمة الثقافة بعد أن أفسح المجال لتعليم البنات في مدارس خاصة بهن وتخريج الأمهات الصالحات .

واتسعت رقعة المدن وانتصب العمران وتشابكت الطرق تسد أجزاء البلاد ، وقامت الشركات المختلفة تخط صفحة جديدة في البناء الاقتصادي وغدا الانسان العربي السعودي غيره بالأمس في تطلعاته وتخطيطه وآماله . واذا كانت الحياة المادية العريضة التي توفرت لكثير من أبناء البلاد قد أوجدت أساليب جديدة في العيش الا أن الطابع المميز للانسان العربي المسلم لا زال في مقدمة الصورة والحمدلله ولا شك أن التعليم الموجه كان له الفضل الكبير في هذا المجال .

هذا ما استخلصته من رحلتي مع هذا الكتاب القيم وأرى من أمانة البحث المجرد أن أقف مع المؤلف الكريم وقفة أكشف فيها انطباعاتي كما وعدت في مطلع هذا العرض .

مع مؤلف الكتاب الدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية :

المؤلف الكريم في نظري رجل حريص أمين ... حريص على استخراج الحقيقة كما يستخرج الدر من مكامنه ، وأمين نزيه في عرضها وتبيانها لا تستهويه بهارج اللفظ وضخامة الكلمات ليجعل ما يقوله صدى في الآذان ، ولكن يهمه أن يجعل منه أثرا في الأفهام .

عبارات متناسقة واضحة تتلاحق كجريان الماء وتحب ان تواكب هذا الجريان ليصل بك الى حقول الري وتشهد معه نضار النماء وتالق الثمار .

يبدو لي أن المؤلف الكريم قرأ كثيرا وسهر كثيرا وناقش وقلب الرأي حتى وصل الى بغيته في اخراج هذا البحث القيم .. والأهم من كل ذلك أنه رجع الى أدق المصادر من وثائق سجلت الأحداث الى آراء رجال شارك بعضهم في صنع هذه الأحداث . وهذا كسب كبير للحقيقة العلمية المنشودة .

وان كان لي ما أقوله خارج هذا الاطار هو أن المؤلف الكريم لم يتوفر له المجال الواسع للاحتكاك مع فئات السكان التي لا تزال تختزن في ذاكرتها أخبار تلك الحقبة . وبعبارة أخرى ان البحث الميداني يضفي دائما على الموضوع طرافة وقوة . واسمح للمؤلف الكريم أن يرد علي فيقول : انني نظرت بعين غيري من الأمناء ممن شاهدوا وسجلوا وخبروا فدونوا ونعم ما يقول .

فالكتاب قيم والمؤلف بحاثة دقيق وما أحوج مكتباتنا الى مزيد من هذا العطاء الكريم .

علي الحاج بكري
كلية العلوم الاجتماعية
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الهوامش والمصادر

(١) الكتاب . ص ١٦ .

(٢و٣) الكتاب . ص ١٦ .

(٤) الكتاب . ص ٢٧ .

(٥) الكتاب نفسه . ص ٣٠ .

(٦) الكتاب . ص ٤٤ .

(٧) الكتاب نفسه . ص ٤٩ .

(٨) المصدر نفسه . ص ٦٧ .

(٩) الكتاب . ص ٧٣ .

(١٠) الكتاب نفسه . ص ٧٣ .

(١١) المصدر نفسه . ص ٨٢ .

(١٢) الكتاب . ص ٨٣ .

(١٣) الكتاب نفسه . ص ٨٦ .

(١٤) الكتاب . ص ١٠٨ .

(١٥) الكتاب نفسه . ص ١٠٩ .

(١٦) الكتاب . ص ١٠٩ .

(١٧) الكتاب . ص ١٤١ .

(١٨) الكتاب . ص ١٥٦ .

(١٩) الكتاب نفسه . ص ١٥٧ .

(٢٠) الكتاب . ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٢١) الكتاب . ص ٢٣١ .